

دراسة موازنة بين كتاب الدر المكنون لعلي بن أبي طالب ونوابغ الكلم للزمخشري

د. يعقوب الحاج عبد الله

Yaqub Alhaji Abdullahi (Ph.D.)

Department of Arabic, University of Ilorin, Nigeria

Tel: 08058035554

قسم اللغة العربية، جامعة إلورن، نيجيريا.

المقدمة:

نال كتابا الدر المكنون وكتاب نوابغ الكلم شهرة كبيرة واهتماما بالغا لدى دارسي اللغة العربية في الديار النيجيرية، وذلك أن معظمهم يدرسونهما في إحدى مراحل دراستهم للغة العربية وآدابها في الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية حسب منهج التدريس لمدارسهم، فهما مما يكونان الخصبة الأولى للمتعلمين في تذوق الأدب، وإن كانا يمثلان جانبا واحدا من الأدب، الذي هو الشر الفني.

فالعمل الأدبي بهذه الميزة تجدر دراسته دراسة فنية تشرح وتظهر ما فيه من الصور البيانية والمحسنات البديعية، وتحلل ما فيه من الاقتباسات القرآنية والأحاديث النبوية، فتلك الدراسة تظهر قيمة العمل الأدبي، ويتحقق بها الفهم والمتعة. وكان ينبغي أن يفرد كلا من الكتابين بمثل هذه الدراسة، لكن اختار الباحث في هذه العجالة دراسة موازنة بين الكتابين لكونهما على طراز واحد في مضمونهما: الحكم والموعظة الحسنة، ولكون صاحبيهما من أشهر الرجال في تاريخ الحضارة الإسلامية وآداب اللغة العربية. فعلي بن أبي طالب أشهر البلغاء في عصر صدر الإسلام والزمخشري يعتبر من رواد فن البلاغة في العصر العباسي.

وقد تناول الباحث في البحث نبذة تاريخية عن حياة المؤلفين، ثم عرض الكتابين، وبعد ذلك قارن بين مضمونهما من جانبي الفكر والشكل ثم الخاتمة.

تعريف بصاحبي الكتابين علي بن أبي طالب

هو علي بن أبي طالب، ولد في مكة عام 600م ونشأ في حجر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أسلم على يده صبيا قبل أن تمس قلبه عقيدة وثنية، وهو من كتاب الوحي وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته، وأحفظهم لقوله وجوامع كلمه، فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم وأدقهم في الفتوى وأقربهم إلى الصواب، حتى قال فيه عمر بن الخطاب "لا بقيت لمعضلة ليس فيها أبو الحسن"¹ وهو الخليفة الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم، توفي سنة 661هـ.

محمود بن عمر الزمخشري

ولد الزمخشري في إقليم خوارزم الفارس سنة 467هـ أقبل على دراسة العلوم اللغوية والدينية، ورحل كثيرا فأقام ببغداد مدة وجاور مكة طويلا، وبها أتمى تفسيره الكشف، ثم عاد إلى وطنه وتوفي به 538هـ وله مصنفات جليلة منها: كتاب الفائق في غريب الحديث، وكتاب أطواق الذهب، ونوابغ الكلم، والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل الذي نال به شهرة مدوية في العالم الإسلامي منذ عصره.²

نبذة عن الكتابين

كتاب الدر المكنون

هو كتاب في الحكم والموعظة الحسنة لعلي بن أبي طالب رتب المؤلف ترتيب الحروف الهجائية، يحمل عنوان كل فصل حرفا من الحروف الهجائية، وجمع تحت كل حرف مجموعة من العبارات في الحكم والموعظة الحسنة، وتبدأ كل جملة فيه بذلك الحرف، وقد التزم هذا

النظام في جميع الحروف، وأقل محتويات كل فصل ثماني جمل وأكثرها اثنتا عشرة جملة. ويمتاز أسلوبه بفكرة قوية وعبارات موجزة متسلسلة بعيداً عن الاضطراب والتكلف.

نوابغ الكلم:

استهل الزمخشري كتابه بالثناء على الله الذي منحه وألهمه هذه الحكم والمواعظ الحسنة، ونوّه باسم الكتاب في أول الجملة منه حيث قال: اللهم إن مما منحتني من النعم السوابغ إلهام هذه الكلم النوابغ. فموضوع الكتاب هو المواعظ الحسنة والحكم الراشدة، ويمتاز أسلوب المؤلف بالإيجاز كالكتاب الأول إلا أنه لم يسلك في كتابه طريقة الترتيب الألفبائي ولا التبويب ولا التقسيم إلى عناوين، والكتاب أكبر حجماً من الدر المكنون.

الخصائص المضمونية في الدر المكنون:

إن موضوع الكتاب هو الحكم والمواعظ الحسنة، عمد فيه المؤلف إلى إرشاد المسلم وتوجيهه إلى ما يصلح به حياته في الدنيا في خاصة نفسه وفيما بينه وبين إخوانه، كما تَبَّه إلى ما يحسن به علاقته مع خالقه، وبهذا يمكن القول بأن الكتاب أحاط - بحكمه وعظاته - بجميع جوانب حياة المسلم، تلکم الجوانب المنحصرة في علاقة المسلم مع ربه وعلاقته مع الناس ثم علاقته مع نفسه، والإسلام حقاً يؤتي كل جانب حقه، ما له وما عليه بغير مغالاة ولا تقصير. ولننظر في مضمون الكتاب على ضوء هذا التقسيم بسوق بعض النماذج.

علاقة الإنسان مع ربه

"إيمان المرء يعرف بأمانته، إظهار الغنى من الشكر، بركة المال في أداء الزكاة، بكاء الإنسان من خشية الله قرّة عين، توكل على الله يكفيك، تكاسل المرء في الصلاة من ضعف الإيمان، خف الله تأمن غيره"³

الإيضاح على ضوء الكتاب والسنة

كل ما سبق من العبارات يدعو إلى الإيمان بالله وحده واتباع هدايه وعدم اتباع الهوى والشياطين أو ما يلهي عن الله ودينه، وكل ذلك مستمد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كما سنرى. فقول المؤلف: "إيمان المرء يعرف بأمانته" أي أداء الأمانة من علامات الإيمان يستنبط معناه من قوله تعالى: "

﴿رَاعُونَ وَعَهْدِهِمْ لِأَمْنَتِهِمْ هُمْ وَالَّذِينَ﴾ (سورة المؤمنون) والاسم الموصول في الآية راجع إلى المؤمنين. وقول المؤلف: "إظهار الغنى من الشكر" أي من علامات الشكر على نعم الله إظهارها في طاعته، يرجع ذلك إلى قوله تعالى:

﴿فَحَدِّثْ رَبِّكَ بِنِعْمَةٍ وَأَمَّا﴾ (سورة الضحى) وقوله: "بركة المال في أداء الزكاة" يستمد من الآية: "

﴿مِنْ ءَاتَيْتُمْ وَمَا اللَّهُ عِنْدَ يَرْبُوا أَفَلَا النَّاسِ أَمْوَالٍ فِي لَيْرَبُوا رَبَّامِنْ ءَاتَيْتُمْ وَمَا

﴿الْمُضْعِفُونَ هُمْ فَأُولَئِكَ اللَّهُ وَجْهَ تُرِيدُونَ﴾ (سورة

الروم) وقوله: "بكاء الإنسان من خشية الله قرة عين" أي بكاء الإنسان بسبب إيمانه بالله وخوفه منه يكون فوزاً له، وهو من قوله تعالى:

﴿خُشُوعًا وَيَزِيدُهُمْ يَبْكُونَ لِلْأَذْقَانِ وَتَحْرِونَ﴾ (إسراء) وجاء

في حديث الرسول في ضمن الذين يظلمهم الله يوم القيامة: رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه. وقوله: "تكاسل المرء في الصلاة من ضعف الإيمان" أي التكاسل في أداء الصلوات أو عدم أدائها في وقتها دليل على ضعف الإيمان ومن علامات المنافقين، قال

تعالى:

يَا قَامُوا الصَّلَاةَ إِلَى قَامُوا وَإِذَا أَخَذَ عَنْهُمْ وَهُوَ اللَّهُ تَخَذَ عَنْ الْمُتَفِقِينَ إِنَّ
 قَلِيلًا إِلَّا اللَّهُ يَذْكُرُونَ وَلَا النَّاسَ يُرَاءُونَ كَسَالًا (سورة النساء) وأما

قوله: "خف الله تأمن غيره" فيستنبط من قوله

تعالى:

يَهْتَدُونَ وَهُمْ أَلَا مَنْ لَهُمْ أُولَئِكَ بِظُلْمٍ إِيْمَنَهُمْ يَلْبِسُونَ أَوْلَمَاءَ أَمَنُوا الَّذِينَ
 (سورة الأنعام)

علاقة المسلم مع الناس:

"أخوك من واساك في الشدة، بر الوالدين سلف، برك لا تبطله بالمنة، تغافل عن
 المكروه توقر، ثبات الملك بالعدل، شر الناس من يتقيه الناس⁴

الإيضاح على ضوء الكتاب والسنة

يمكننا استنباط النصائح السابقة من المصدرين الإسلاميين: القرآن والحديث. فقول
 المؤلف: "أخوك من واساك في الشدة، أي ليس بأخيك من خذلك في الشدة، يوافق ما جاء
 في القرآن الكريم عن حال المنافقين مع المؤمنين إذ يجاملونهم إذا كانوا في اليسر والمسرّة،
 ويفرون منهم عند الشدة والضراء. قال تعالى: "

نَوَإِنْ مَعَكُمْ نَكُنْ أَلَمْ قَالُوا اللَّهُ مِّنْ فَتَحْ لَكُمْ كَانَ فَإِنْ بِكُمْ يَتَرَبَّصُونَ الَّذِينَ

﴿الْمُؤْمِنِينَ مَنْ وَنَمْنَعُكُمْ عَلَيْكُمْ نَسْتَحْذِرُ الْمَقَالُوا أَنْصِيبُ لِلْكَافِرِينَ كَا
يِلَا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى لِلْكَافِرِينَ اللَّهُ يُجْعَلُ وَلَنْ الْقِيَمَةِ يَوْمَ بَيْنَكُمْ تَحْكُمُ فَاللَّهُ
سَب (سورة النساء) وقوله :

"بر الوالدين سلف "أى كل ما فعلته لوالديك من خير فإن الله مجازيك به في الدنيا بتسخير
ولذلك ليعوضك بمثله، وهو على إثر قول الرسول صلى الله عليه وسلم "بروا آباءكم تبركم
أبناؤكم" ⁵ وقوله: "برك لا تبطله بالمنة" يفهم من قوله تعالى:
هُدُيْنَفِقُ كَالَّذِي وَالَّذِي بِالْمَنْ صَدَقْتِكُمْ تُبْطِلُوا أَلَاءَ أَمْنُوا الَّذِينَ يَتَأْتِيهَا
عَلَيْهِ صَفْوَانٍ كَمَثَلٍ فَمَثَلُهُ رَأَى خِرَ وَالْيَوْمِ بِاللَّهِ يُؤْمِنُ وَلَا النَّاسِ رِئَاءَ مَا
سَبُوا مِمَّا شِئْ عَلَى يَقْدِرُونَ لَا صَلْدًا افْتَرَكَهُ رَوَابِلُ فَأَصَابَهُ دُتْرَابُ

﴿الْكَافِرِينَ الْقَوْمَ يَهْدِي لَا وَاللَّهُ﴾ (سورة البقرة) وقوله: "تغافل عن المكروه
توقر "أى من كان دأبه العفو فسيكون موقرا محببا عند الناس. وقد حث الله على العفو في
كثير من الآيات، مثل قوله تعالى:

سِ عَنِ وَالْعَافِينَ الْغِيْظَ وَالْكَظِيمِينَ وَالْضَّرَّاءِ السَّرَّاءِ فِي يُنْفِقُونَ الَّذِينَ
﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ حُبُّ وَاللَّهِ النَّا وَقوله: "ثبات الملك بالعدل" حث على العدل

والإنصاف بين الرعية، وهذا

مناخرهم إلى على حصائد ألسنتهم" ⁸ وقوله: "حياء المرء يستره" يعني أن الحياء من الفضائل الحمودة التي يجب أن يتحلى بها المسلم، فهو ثوب جميل يتجمل به الإنسان. وقوله: "خالف بنفسك تسترح" أي في مخالفة النفس الراحة والنجاح، وفي اتباعها الهلاك والندامة، فعليك أن تخالفها فيما تدعوك إليه مما نهاك منه مولاك وحذرك، قال تعالى:

﴿الْمَأْوَىٰ هِيَ الْجَحِيمُ فَإِنَّ﴾ (سورة النازعات) وقوله: "طاعة العدو هلاك" أي

على المسلم أن يعرف أعداءه ويحذرهم وألا يغتر بمجاملتهم، بل يجب أن يتخذهم أعداء كما أمر الله تعالى:

﴿حَبِّ مِّنْ لِّيَكُونُوا حِزْبَهُ رِيْدٌ عُوَاٍنَّمَا عَدُوًّا فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا لَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّ

﴿السَّعِيرَ﴾ (سورة فاطر) وقوله: "عش قنعا تكن ملكا" أي عليك ألا تطلع إلى

ما عند الناس، فيعلو قدرك، فالقناعة كنز لا يفنى، ومن كان ذا قناعة ولو كان فقيرا فسيحسبه الناس غنيا، قال تعالى:

﴿رِمْنٌ تُنْفِقُوا وَمَا يَشَاءُ مِّنْ يَّهْدِي اللَّهُ وَلَٰكِنَّ هُدًى لَّهُمْ عَلَيْكَ لَيْسَ

﴿خَيْرٌ مِّنْ تُنْفِقُوا وَمَا أَلَّهِ وَجْهَ ابْتِغَاءٍ إِلَّا تُنْفِقُوا وَمَا فَلَائِ نَفْسِكُمْ خَيْرٌ

﴿تُظْلَمُونَ لَا وَأَنْتُمْ إِلَيْكُمْ يُوف﴾ (سورة البقرة)

الخصائص المضمونية في نوابغ الكلم

موضوع هذا الكتاب الحكم المحكمة والمواعظ الحسنة المستنبطة من السنة النبوية وآثار الصحابة والتابعين، وغاية المؤلف في الكتاب هي إرشاد المسلم إلى ما يحقق به سعادته

في الدنيا والآخرة كما نبهه إلى ما يحسن به علاقته مع خالقه أو مع إخوانه أو ما يحتاج إليه في حياته الفردية، لكنه لم يصرح في هذه الجوانب الثلاثة كما صرح بها صاحب الدر المكنون. ولتيسير الدراسة سأعرض مضمون الكتاب من ناحيتين: الحكم والمواعظ المختصة بالأمر الديني، وما كانت منها مختصة بحسن السلوك والمعايشة.

الحكم والمواعظ في الأمور الدينية

"أرضي الناس بالخسار بايع الدين بالدينار، أي مال أدت زكاته درت بركاته، العمل مع فساد الاعتقاد مشبه بالسراب والرماد، خذ ما هو لديك وعرضك أصون ولا تأخذ بما عليك أهون، لا تقع الأعمال سنية ما لم تقع سنية⁹.
الإيضاح على ضوء الكتاب والسنة:

"أرضي الناس بالخسار بايع الدين بالدينار" أي كل من بدل دينه بمتاع الدنيا الزائل
يخسر يوم القيامة، قال تعالى:

﴿فِي لَهُمْ خَلْقٌ لَا أُولَئِكَ قَلِيلًا ثَمَنًا وَأَيَّمَنِ اللَّهُ بِعَهْدٍ يَشْتَرُونَ الَّذِينَ إِنْ لَهُمْ يُزَكِّيهِمْ وَلَا الْقِيَمَةِ يَوْمَ إِلَيْهِمْ يَنْظُرُوا لَا إِلَهَ يُكَلِّمُهُمْ وَلَا آخِرَ

﴿أَلَيْمٌ عَذَابٌ﴾ (سورة العمران) وقوله: "أي مال أدت زكاته درت بركاته" أي أن أداء الزكاة من المال تطهير وتنمية له، ويفهم هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿مِنْ أَتَيْتُمْ مَا اللَّهُ عِنْدَ رَبُّوْا فَلَا النَّاسِ أَمْوَالٍ فِي لَيْرُؤَا رَبَّامِنْ أَتَيْتُمْ مَا الْمُضْعِفُونَ هُمْ فَأُولَئِكَ اللَّهُ وَجْهَ تُرِيدُونَ﴾ (سورة

الروم) وقوله: "العمل مع فساد الاعتقاد مشبه بالسراب والرماد" يشير إلى أن الإيمان

الصحيح هو الأساس الذي يبنى عليه العمل الصالح، فالعمل الصالح بغير سابق الإيمان كالبناء بلا أساس، فلا ثبات له أو كالسرّاب الذي لا حقيقة له، وهذا من التمثيل القرآني لأعمال الكفار، وهو صورة مستنبطة من هذه الآيات: قال تعالى:

صَفِيّوْمِي فِي الرِّيحِ بِهِ أَشْتَدَّتْ كَرَمَادٍ أَعْمَلُهُمْ بِرَبِّهِمْ كَفَرُوا وَالَّذِينَ مَثَلُ

الْبَعِيدُ الضَّلَلُ هُوَ ذَلِكَ شَيْءٌ عَلَى كَسْبُوا مِمَّا يَقْدِرُونَ لَا عَا (س)

تعالى:

إبراهيم) وقوله

ورة

ه إِذَا حَتَّى مَاءَ الظَّمَّانِ يُحَسِّبُهُ بِقِيعَةٍ كَسْرَابٍ أَعْمَلُهُمْ كَفَرُوا وَالَّذِينَ

الْحِسَابِ سَرِيعٌ وَاللَّهُ حِسَابُهُ دَفَوْفُهُ عِنْدَهُ وَاللَّهُ وَوَجَدَ شَيْئًا يَجِدُهُ لَمْ جَا

(سورة النور) وقوله: "خذ ما هو لدينك وعرضك أصون ولا تأخذ بما هو عليك

أهون" أي على المسلم أن يختار ما يحفظ دينه ويحمي عرضه ولو كان عزيزا على نفسه، شاقا عليها، وليحذر من ميل إلى أيسر الأمور المفسدة لدينه أو المهتكة لعرضه. وقوله: "لا تقع الأعمال سنية ما لم تقع سنية" أي كل عمل لم يقع على سنة الرسول فليس له قيمة.

الحكم والمواظظ في حسن السلوك والمعاشرة

"رب قول أوردك مورد القتال أو ردك مورد القذال، من لم يقومه التأنيب لم يقومه التأديب، أكرم حديث أخيك بإنصاتك وصنه عن وصمة عدم إلفاتك، هجوم الأزمات يفسخن الغزمات، من أخطأته المناقب لم تنفعه المناسب، التاجر مجده في كيسه والعالم مجده في كراريسه¹⁰.

الإيضاح على ضوء الكتاب والسنة

قول المؤلف: "رب قول أوردك مورد القتال أو ردك مورد القذال" أي يجب صون اللسان عما يجلب الضرر واستعماله فيما يجلب النفع، وأن يتحرى المسلم الصدق والخير فيما ينطق به، وقد حذر الرسول من خطورة هذا العضو في كثير من أحاديثه، وقد أوردنا سابقاً حديثه الذي أمر بكف اللسان حتى لا يكب صاحبها في النار، وقوله: "من لم يقومه التأنيب لم يقومه التأديب" يعني أن من لم ينفعه الوعظ والإرشاد لا يجدي فيه الضرب والتعذيب، وقوله: أكرم حديث أخيك بإنصاتك وصنه عن وصمة عدم إلفاتك"، يريد أنه من آداب المحادثة أن ينصت صاحب لصاحبه، وألا يقطعه في حديثه وألا يصرف عنه وجهه، قال تعالى:

لِكُلِّ تَحِبُّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَن مَرَحًا الْأَرْضِ فِي تَمْشٍ وَلَا لِلنَّاسِ خَدْلَكَ تُصَعَّرُونَ لَا

﴿فَخُورٍ مَّحْتًا﴾ (سورة لقمان) وقوله: "هجوم

الأزمات فسخن العزمات" يقصد أن حلول المضائبات والكوارث يمنع دون الوصول إلى الأمنيات والمقاصد، وقوله: "من أخطائه المناقب لم ينفعه المناسب"، أي من لم توصله أعماله وإنجازاته إلى المنصب الأعلى لا يوصله إليه نسبه. وقوله: "التاجر مجده في كيسه والعالم مجده في كراريسه" يعني أن التاجر يتشرف ويسمو بما ينفق من ماله بينما شرف العالم يكون بإفادته الناس بالتدريس أو التأليف أو التذكير.

الخصائص الفنية في الدر المكنون

اللغة والأسلوب

لقد اتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن الألفاظ والمفردات الواردة في الدر المكنون متسمة بسمه الوضوح، مما جعل معانيه قريبة المأخذ، سهولة الفهم، وإذا ما تأملنا ألفاظه ومعانيه نرى أنها مأخوذة من القرآن الكريم، ومن الحديث النبوي الشريف، وعبارات

الكتاب موجزة واضحة ومترابطة، بعيدة عن الضعف والتكلف، أما أسلوبه فمتأثر بأسلوب القرآن الكريم والحديث الشريف وهو متميز بالمتانة والإقناع.

الصور البيانية في الدر المكنون

وجدنا في الكتاب من التشبيهات الرائعة والاستعارات البالغة ما يثبت فصاحته وبلاغته، ومن هذه التشبيهات قوله: "مصاحبة الأشرار كركوب البحر لا سلامة فيه" فهو تشبيه مرسل ومجمل. ومن التشبيه البليغ قوله: "دينار الشحيح حجر" أي كما أن الحجر لا ينال منه الماء مهما بالغ المرء في ضربه، كذلك مال البخيل لا تنال معروفه ولو ظلت عليه عاكفا. والتشبيه البليغ من أسمى التشبيهات، فهو مجال يتسابق فيه البلغاء، ويرجع سر بلاغته إلى حذف أداة التشبيه ووجه الشبه، ومنه قوله: "ذلاقة اللسان رأس المال". ومما يلاحظ فيه الاستعارة قوله: ثلثة الحرص لا يسدها إلا التراب" شبه الحرص بالبناء وحذف المشبه به ورمز له بثلثة على سبيل استعارة مكنية. ونجد استعارة أخرى في قوله: "رزقك يطلبك كما تطلبه فاسترح" حيث شبه الرزق بكائن حي وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الطلب على سبيل استعارة مكنية، ومن الاستعارة أيضا قوله: "ضل من باع الدين بالدنيا" شبه استبدال شيء ببيع بجامع إخراج المنفعة إلى الغير، فحذف المشبه وأقيم المشبه به مقامه، على سبيل استعارة تصريحية تبعية، وهي استعارة مستوحية من صور القرآن الكريم، إذ تفهم من قوله تعالى:

فِي لَهُمْ خَلْقٌ لِأُولَئِكَ قَلِيلًا ثَمَنًا وَأَيَّمَنِ اللَّهُ بِعَهْدٍ يَشْتَرُونَ الَّذِينَ إِنَّ
لَهُمْ يُزَكِّيهِمْ وَلَا الْقِيَمَةَ يَوْمَ إِلَيْهِمْ يَنْظُرُونَ وَلَا اللَّهُ يُكَلِّمُهُمْ وَلَا الْآخِرَ
أَلَيْمٌ عَذَابٌ (سورة آل عمران)

الخصائص الفنية في نوابغ الكلم
اللغة والأسلوب:

الواضح في هذا الكتاب هو أن ألفاظه مزيجة بين السهلة القريبة التي يفهمها القارئ بلا أدنى جهد وبين الغريبة التي تلجئ القارئ إلى القاموس. وما زاد في غرابة ألفاظه كثرة البديعات الواردة فيه، ومع ذلك ظلت معانيه فيها الجدة والوضوح مما يجعلها تجذب القلوب وتثير في الوجدان. وقد استمد المؤلف بعض ألفاظه ومعانيه من الآيات القرآنية. وما ترد ألفاظه ومعانيه إلى القرآن قوله: "إن الذي سخر الفلك على الماء هو الذي سخر الفلك في السماء" يرد إلى قوله تعالى:

بِهِ فَأَخْرَجَ مَاءَ السَّمَاءِ مِنْ بَ وَانْزَلَ وَالْأَرْضَ السَّمَوَاتِ خَلَقَ الَّذِي اللَّهُ
خَرَّبَ أَمْرَهُ الْبَحْرِ فِي لَتَجْرِي الْفُلْكَ لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ رِزْقًا الثَّمَرَاتِ مِنْ

﴿١٢﴾ الْأَنْهَارَ لَكُمْ وَس (سورة إبراهيم) ومن ذلك قوله: "المتقون في ظلال وسرر والمجرمون في ضلال وسر" يستنبط من قوله

تعالى: ﴿٤٧﴾ وَسُعْرٌ ضَلَّلَ فِي الْمُجْرِمِينَ إِنَّ (سورة القمر) وأما قول المؤلف: "المؤمن طبع سلس وهو على الفاسق جامع شرس" فيرجع إلى قوله تعالى:
كَعَاثَرْتُهُمْ بَيْنَهُمْ رُحَمَاءُ الْكُفَّارِ عَلَى أَشَدَّ آءٍ مَعَهُ وَالَّذِينَ اللَّهُ رَسُولٌ مُحَمَّدٌ
وَدِأْتَرِمْ مِنْ وَجْهِهِمْ فِي سِيَمَاهُمْ وَرَضَوْنَا اللَّهَ مِنْ فَضْلًا يَبْتَغُونَ سُجْدًا
رَهُ شَطْطَهُ دَأْخَرَجَ كَزَرْعٍ إِلَّا نَحِيلَ فِي وَمَثَلُهُمُ التَّورَةِ فِي مَثَلُهُمْ ذَلِكَ الشَّج
كَدَ الْكُفَّارِ بِهِمْ لِيَغِيظَ الزُّرَّاعَ يُعْجِبُ سَوْقَهُ عَلَى فَاسْتَوَى فَاسْتَغْلَظَ فَتَازَ

﴿عَظِيمًا وَأَجْرًا مَغْفِرَةً مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَعَمِلُوا أَمْنًا الَّذِينَ اللَّهُ وَء﴾

سورة الفتح) هذا وأسلوب المؤلف يمتاز بدقة ومتانة، قوامه ذخيرته اللغوية وحظه الوافر من بلاغة القرآن الكريم.

الصور البيانية في نوابغ الكلم

ورد في الكتاب بعض الصور البيانية من التشبيهات والاستعارات، وهو مما زاد في روعة الكتاب وإظهار شخصية المؤلف العالم بالبيان ووجوهه، ومما ورد في التشبيه النبلي قول المؤلف: "العلم جبل صعب المصعد ولكنه سهل المنحدر، والجهل منهل سهل المورد إلا أنه صعب المصدر". لكن التشبيه الضمني أكثر في الكتاب من غيره من التشبيهات، ومثال ذلك قوله: "ربما كانت الحيلة من القوة أغلب والزبية يصطاد بها كل ليث أغلب" أي كما أن الليث بقوته وسطوته، قد تكسر شوكته وتحسم يده فيقع أسيرا بحفرة صغيرة فكذلك تجد أن الحيلة والتقلب في أمر أجدى وأنفع من استعمال القوة أحيانا. ونحو قوله: "رب زيادة هي نقصان فائدة والكف تنقصها الأصبع الزائدة" أي ليست كل زيادة تحسب فائدة، وهذا واضح في الكف الذي تنقص قيمته إذا زادت أصبعه على العدد المألوف. ومثل قوله: "الأحق لا يجد لذة الحكمة كما لا يتمتع بالورد صاحب الزكمة" أنظر كيف يدعم دعواه بالحجج عن طريق التشبيه الضمني إقناعا للقارئ.

ومما يلاحظ في الكتاب من الاستعارة قول المؤلف: "مخلب المعصية يقص بالندامة وجناح الطاعة يوصل بالإدامة" ففي كل جملة من الجملتين استعارة مكنية حيث حذف المشبه به فيهما ورمز له بشيء من لوازمه، وهو مخلب في الجملة الأولى وجناح في الجملة الثانية. ومن الاستعارة أيضا قوله: "من أرسل نفسه مع الهوى فقد هوى في أبعد الهوى" فأرسل نفس مجاز، حيث شبه النفس بكائن حي يمكن إرساله، فحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو أرسل، على سبيل استعارة مكنية.

المحسنات البديعية في نوابغ الكلم

ومن أظهر السمات الفنية في الكتاب ما جا فيه من المحسنات البديعية، وهي كثيرة، فقد أسرف فيها المؤلف حتى يمكن القول بأن في كل جملة من جمل الكتاب نوعاً من أنواع البديع، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى عصر المؤلف. ذلك العصر العباسي الذي انتشرت فيه الصنعة اللفظية، وأظهر المحسنات في الكتاب هما الجناس والسجع، ومن أمثلة الجناس التام قوله: "لا تقع الأعمال سنية ما لم تقع سنية" وقوله: "عض العدو أفعالك أشد من عض الأفعى لك" وكذلك قوله: "عيني تقر بكم عند تقربكم". ومثال الجناس غير التام: "مجوم الأزومات يفسخن العزمات" والجناس التام وغير التام في قوله: "الشريف إذا غيب عنه غيب وإذا إيب إليه هيب" ومن أمثلة السجع قوله: "المتقون في ظلال وسرر والمجرمون في ضلال وسعر" ومنه قوله: "في قرع باب اللئيم قلع ناب الكريم" وقوله: "عليك بالعمل دون التمني وإياك والأمل دون التأني" وقوله: "قد تبع الأصل والفرع من تبع العقل والشرع".

الملاحظات

تبين من خلال دراستنا لمضمون الكتابين أن صاحبيهما تثقفاً بالثقافة الإسلامية الواسعة، وأن مضامين الكتابين إشادة بتعاليم الإسلام وغرس تصوراته في النفوس في صورة الحكم والمواعظ الحسنة المستمدة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وكذلك نرى أن الكاتبين اتفقا في بعض المعاني بحيث لا نجد فرقا بينهما في تلك المعاني إلا في التركيب والأسلوب، على أنه قد يكون أسلوبهما متقاربين في معنى أو متخالفين، ومن أمثلة ما تقارب فيه أسلوبهما، قول علي: "بركة المال في أداء الزكاة" وعبر الزمخشري عنه بقول "أي مال أدت زكاته درت بركاته"، فمعنى الجملتين واحد وأسلوبهما فيه متقارب، ومثال آخر قول علي: "خابت صفقة من باع الدين بالدنيا" يقارب ذلك في المعنى

قول الزمخشري "أرضى الناس بالخسار بايع الدين بالدينار" ولعلي: "أخوك من واساك في الشدة" حيث يقول الزمخشري: "محل المودة والإخاء حال الشدة لا الرخاء".

وأما ما اختلف فيه أسلوبهما فنحو قول علي: بلاء الإنسان من اللسان" وقد قال فيه الزمخشري "رب قول أوردك مورد القتال أو ردك مورد القذال" وقال أيضا: "ق فاك عما يقرع قفاك" وفي معنى آخر قال علي: "ضل من رجا غير الله" ويقول فيه الزمخشري: "قد أمن الحرمان من سأل الرحمن". وإنه ليس من عجب أن نجد الكتابين على طراز واحد في الحكمة والموعظة الحسنة أو أن نراهما متفقين أحيانا في بعض المعاني، فقد استقى المؤلفان من أصل واحد، كتاب الله وسنة رسوله، وفي الواقع لا يستهان بفضل الأسبقية لعلي كرم الله وجهه.

كما ظهر واضحا ما امتاز به كل من الكتابين في اختيار الكلمات، فكلمات علي متممة بالسهولة والوضوح، أما كلمات الزمخشري فهي مزججة بين سهولتها وغرائبها، مع أن كل منهما تأثر في أكثر الألفاظ والمعاني بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

أما الصور البيانية فقد تجلت في صفحات الكتابين، وهي مستمدة في أكثر الأحيان من الصور القرآنية، إلا أنها مع قلتها في كتاب علي، فهي في منتهى القوة والدقة في التصوير، بينما نجد هذه الصور كثيرة في كتاب نوابغ الكلم، وهي فيه رائعة، مقنعة تمتاز بالإبداع والإحكام. وأما عندوقوفنا عند المحسنات البديعية فقد وجدناها أبرز السمات الفنية في نوابغ الكلم، فهي مبسطة في صفحات الكتاب، ويلاحظ في بعضها الغلو والتكلف، حينما كان الدر المكنون خاليا منها.

الخاتمة

من خلال الدراسة السابقة حاولنا إعطاء فكرة عامة عن كتابي الدر المكنون ونوابغ الكلم، حيث تفرغنا للدراسة مضمونها بعرض بعض النماذج منهما وشرحها، وقد رأينا في ذلك كيف اتفق المؤلفان في استمداد معانيهما من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، كما اتضحت في الدراسة وجوه الاتفاق والاختلاف في التعبير عن هذه المعاني. وفي الدراسة الفنية

تبين لنا حد الاختلاف بين المؤلفين في اختيار الألفاظ وفي الأسلوب، فالألفاظ والمفردات في الدر المكنون سهلة واضحة والتعبير بها موجز مقنع، بينما الألفاظ في نوابغ الكلم بين السهلة الواضحة والغريبة البعيدة، والتعبير بها يمتاز بالدقة والمتانة، وقد رأينا الصور البيانية مسهلة في نوابغ الكلم وخصوصا التشبيه الضمني، أما في الدر المكنون فهي معدودة، وكانت المحسنات البديعية أظهر السمات الفنية في نوابغ الكلم بينما نجد الدر المكنون خاليا منها تقريبا. ونرجو أن تكون هذه الدراسة قد حققت شيئا من الهدف الأساسي من العمل الأدبي، الذي هو المنفعة والمتعة معا، وأن تكون قد أظهرت مستوى الكتابين وجهد المؤلفين، والله الحمد والمنة.

الهوامش

- 1- عثمان بن محمد الخميس، حقبة من التاريخ، دار الهداية، القاهرة، 2008م، ص 114
- 2- عثمان إدريس كركاوي، أساليب بلاغية في كتاب نوابغ الكلم للشيخ الزمخشري: دراسة تطبيقية، رسالة الماجستير المقدمة إلى قسم الأديان، جامعة إلورن، 2003م، ص 2
- 3- علي بن أبي طالب، الدر المكنون، الطبعة الرابعة، مطبعة التهئة، إبادن، ص ص 5، 5، 6، 7، 7.
- 4- علي بن أبي طالب، المرجع السابق، ص ص 5، 6، 6، 7، 8، 17
- 5- يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، المطبعة الرابعة، مطبعة المشهد الحسيني، غير مؤرخ، ص 172
- 6- يحيى بن شرف النووي، المرجع نفسه، ص 121
- 7- علي بن أبي طالب، المرجع السابق، ص 10
- 8- يحيى بن شرف النووي، المرجع السابق، ص 446
- 9- محمد بن عمر الزمخشري، نوابغ الكلم، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، د.ت، ص 11
- 10- محمد بن عمر الزمخشري، المرجع السابق، ص ص 7، 8، 10، 113، 13